

نحو مؤلفات قيادية في العلوم والقضايا الإسلامية

يشكو كثير من أهل العلم والفكر والثقافة مما يسود المكتبة العربية الإسلامية من عشوائية وضحالة وغثائية . ولا يُستثنى من هذا الواقع سوى عدد قليل من إصدارات بعض المؤلفين وبعض دور النشر أو بعض المؤسسات الرسالية . وحتى هذه الاستثناءات التي تقدم لمكتبتنا شيئاً من الجدة والجودة غالباً ما يَعَوَّل فيها على المبادرات والجهود الفردية للمؤلفين والمحققين والمترجمين . ومن هنا يبقى أثرها محدوداً ويبقى عددها مغموراً ، ضمن الكثرة الكاثرة مما تخرجه لنا المطابع ودور النشر والتوزيع .

وعلى العموم فالكتاب العربي الإسلامي في أغلب أحواله ، وفي أحسن أحواله ، ينحصر أثره في سد الفراغ وتلبية بعض الاحتياجات العلمية والعملية والثقافية والاجتماعية لعموم القراء والمثقفين المتدينين ، ولبعض الطلبة والباحثين المتخصصين . وبعض هذه الكتب والكتابات قد تقوم بصفة خاصة بدور الإسناد والتوجيه المذهبي للجهات التي تنبع عنها وتدور في فلكها ، من حكومات وأحزاب وحركات إسلامية أو قومية .

أما الدور القيادي الطليعي في تجديد الصرح العلمي للأمة الإسلامية ، وفي إحداث إصلاح وبناء فكري منهجي ، وفي توجيه

الأمة والنخب الفاعلة فيها نحو النهضة والريادة الحضارية ، وفي صياغة الحلول والمشاريع النهضوية ، وإزاحة العوائق والإشكالات العلمية والفكرية التي تعترضها ... فهذا كله يبدو كأنه غير وارد ، أو غير ممكن ، في الأفق المنظور وعلى النحو الذي تسير عليه الأمور .

ولكن لا بد مما ليس منه بد .

فنحن أمة (اقرأ) ، ونحن أمة (الكتاب) ؛ معجزة نبينا كتاب ، وديننا كتاب وحكمة .

خاصيتنا وميزتنا وقيادتنا ليست في قوتنا الاقتصادية ، وليست في مواردنا الطبيعية ، وليست في قدراتنا الجهادية القتالية ، أو تضحياتنا الحركية والمالية .

وإنما خاصيتنا مبدؤها وأساسها وميزتها القراءة والعلم ، والحكمة والفكر . وما سوى ذلك فهي توابع ووسائل ومكملات . وقال الإمام البخاري : « باب العلم قبل القول والعمل ، لقول الله تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، فبدأ بالعلم ... » .

فإذا لم تكن - فعلا - خاصيتنا علمية ، ولم تكن رسالتنا علمية ، ولم تكن نهضتنا علمية ، ولم تكن حضارتنا علمية ، فقد جُذنا عن الطريق الصحيح .

فلا بد إذاً مما ليس منه بد ، وهو اتخاذ العلم والعمل العلمي إماما ، واتخاذ الكتاب إماما ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود: ١٧] .

فسنة الله تعالى إنزال الكتب . وسنة الأنبياء تبليغ الكتب وإمامة الناس بالكتب . ووظيفة العلماء والمفكرين ترسيخ الإمامة والقيادة للكتاب الإمام ، ثم ترسيخ ثقافة الكتاب وإمامة الكتاب والعلم بصفة عامة . وظيفة العلماء والمفكرين إنتاج الكتب القيادية الهادية لمختلف الأزمنة والأجيال ، بحسب المشكلات والحاجات والإمكانات القائمة في كل زمان .

وليس صحيحاً ما قاله الشاعر أبو تمام :
السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصفائح في

متونهن جلاء الشك والريب

بل نقول : الكتاب أصدق قيلاً وأقوم سبيلاً ، والصفائح مقدمة على الصفائح وحاكمة عليها .

والله ﷻ قال : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] ، فالأساس والعمدة في دين الله وشرعه : الكتاب والميزان والبيّنات ، أي : الكتاب ومنهج الكتاب .

ثم بعد ذلك أضاف سبحانه نعمة أخرى ، وهي لجميع خلقه ، فقال : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ .

فالعلم إمام العمل وقائده ، فلذلك نحتاج إلى الكتب القيادية في كافة المجالات الحيوية .

ولقد عرف تاريخنا المديد مؤلفات قيادية نموذجية في مختلف العلوم والتخصصات ، جاءت في لحظتها وعند ميسر الحاجة إليها ، فقادت حركة العلم والفكر ، ومن خلالها وجهت حركة الأمة والمجتمع ، وشكل بعضها محطات ومنعطفات علمية نوعية ؛ نذكر منها على سبيل المثال :

كتاب (الموطأ) للإمام مالك ، و(الجامع الصحيح) للإمام البخاري . وهما الكتابان النموذجيان المؤسسان والقائدان لما جاء بعدهما في مجال علوم الحديث وتدوين السنة .

وكتاب (الرسالة) وكتاب (الأم) للإمام الشافعي ، وهما كتابان نموذجيان قائدان للحركة الفقهية الأصولية وللعقلية الفقهية الأصولية على مر العصور .

و(جامع البيان) للإمام الطبري ... وهو الكتاب المؤسس والموجه لعلوم القرآن والتفسير ، من يومه وإلى الآن . فضلا عن إسهامه ومرجعته في تأسيس علوم الفقه والأصول واللغة .

كتاب (المقدمة) للعلامة عبد الرحمن بن خلدون . وهو الكتاب الذي طارت شهرته وسمت مكانته شرقا وغربا ، قديما وحديثا ، واعتبر رياديا في مجال العلوم والدراسات التاريخية والاجتماعية والحضارية .

وبعض تلك المؤلفات لم يكن لها الأثر الفوري والمباشر ، لأن أهل زمانها غفلوا عن قيمتها ، أو لم يكونوا مهيين للاستفادة منها ، ولكنها سرعان ما عادت فأدت رسالتها وأحدثت أثرها الكبير ، بعد زمن أو أزمان من تأليفها ؛ ككتب ابن تيمية وابن القيم ، وكتب ابن عبد السلام ، وكتاب (المقدمة) لابن خلدون ، وكتاب (الموافقات) للشاطبي .

وفي العصر الحديث شكلت (مجلة الأحكام العدلية) وقواعدها ، عملاً تجديدياً قيادياً ، كان له عميق الأثر في مجال الفقه والقواعد الفقهية .

كما شكل كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية) للعلامة ابن عاشور أساساً ومنطلقاً ومحوراً لتأسيس علم مقاصد الشريعة ، بكل آثاره وثماره الحميدة الجارية اليوم .

المؤلفات القيادية - سواء منها تلك المتقدمة الموجودة ، أو هذه المطلوبة المنشودة - عادة ما تنبثق عن أحد أمرين ، أو عنهما معا :

١- أن تأتي نتيجة وعي المؤلفين ومعاناتهم ورؤيتهم لما عليه حال الأمة ومشكلاتها ومتطلباتها ، وسعيهم لتقديم عمل علمي يلبي المتطلبات ويسد الثغرات .

٢- أن تأتي استجابة لرغبة وطلب ورجاء ، يقدمه للعالم بعض من تلاميذه أو أصدقائه أو ولاية زمانه ، أو غيرهم ممن يدركون المطلوب ، فيرشحون له من هو أهل للنهوض به .

ما أعنيه الآن أكثر ، هو الصنف الثاني من هذه المؤلفات ، أما الصنف الأول فيرجع إلى مبادرة أصحابه ، كثرهم الله ووفقهم .

الصنف الثاني من المؤلفات القيادية يعتمد على إدراك القضية وتصورها ، ثم إعداد الفكرة وتحديد المطلوب فيها والغرض منها ، ثم التوجه بذلك إلى ذوي الاختصاص والأهلية من العلماء والمفكرين ، رجاء قيامهم بالإنجاز . وقد يكون هذا الإنجاز فرديا وقد يكون جماعيا . ولكل منهما مزاياه ومحاذيره . وقد يكون حجم الكتاب أو المشروع ، أو طبيعته والغرض منه ، هو الذي يرجح الإنجاز الفردي أو الجماعي . على أن الإنجاز الفردي في حال اعتماده ، لا بد وأن يكون محفوفا ومعززا بفكر جماعي ، يتمثل في التحضير والتشاور والتقويم والتحكيم .

عندنا اليوم جهات ومؤسسات كثيرة مهتمة بالدراسات والبحوث ، أو مهتمة بالإنتاج العلمي ونشره ، أو مهتمة بقضايا الإصلاح والنهضة والتنمية ، أو مهتمة ببعض القضايا المصرية والإستراتيجية والمنهجية ... وهذه الجهات والمؤسسات منها الحكومية ومنها الأهلية ، منها العامة المتعددة الاختصاصات ومنها المتخصصة .

فأرشدُ طريق لإنتاج (المؤلفات القيادية) التي أتحدث عنها ، هو أن تتولى أمرها مثل هذه المؤسسات ، وأن تقوم على رعايتها من البداية إلى النهاية . فأما البداية فهي الإعداد المدروس لفكرة المؤلف

أو المشروع العلمي ، انطلاقاً من أهميته وأولويته ومسيس الحاجة إليه على صعيد الأمة ... وأما النهاية فهي التمكين له ؛ بالاحتفاء بإنجازته والتعريف به وبمضامينه ، وترجمته ونشره بجميع وسائل النشر المتاحة ... وبين البداية والنهاية ، أشكال عدة من الحضانة والرعاية .

على أن المؤلفات القيادية المنشودة لا بد وأن تتسم بسمات منهجية تجعلها تتجاوز الحدود والمستويات التي عادة ما تقف عندها الإنتاجات والمعالجات المتسمة بالطابع الفردي أو المذهبي . ومن هذه السمات الضرورية :

- ١- الإحاطة بالقضية المقصودة من جميع جوانبها المؤثرة فيها .
 - ٢- النزاهة والتوازن والتحقيق والحسم .
 - ٣- العمق والجرأة والمستوى الاجتهادي .
 - ٤- الملاءمة والاستجابة لظروف الأمة وحاجاتها اليوم وغدا .
- وفيما يلي بعض القضايا والمجالات العلمية التي ما زالت تحتاج وتفترق إلى مؤلفات قيادية جامعة للمواصفات المذكورة :
- ١- كتاب جامع عن القرآن الكريم ، نصاً ورسالة وفهماً .
 - ٢- كتاب جامع عن القضايا والإشكالات الأساسية المتعلقة بالسنة النبوية وفهمها والعمل بها .
 - ٣- كتاب جامع للأحاديث النبوية المعتمدة ، مما لا نزاع في

صحته عند جمهور أهل الاختصاص . ويبقى المتنازع فيه في مظانه ، يطلبه ويرجع إليه من يريد من العلماء والدارسين والمحققين . بمعنى أن يكون عند المسلم والدارس للإسلام كتابان أساسيان : القرآن ، ثم كتاب واحد في السنة الصحيحة المعتمدة .

٤- كتاب جامع في العقيدة والتصورات العقدية الكبرى في الإسلام ومنهج معاجتها وتفعيلها .

٥- كتاب في تجديد أصول الفقه ومنهج التفكير الإسلامي .

٦- كتاب في قضية اللغة العربية وأهميتها ، والمخاطر والتحديات التي تواجهها ، وما يستتبع ذلك من آثار وانعكاسات ، وما يتطلبه من حلول ومعالجات .

٨- كتاب - أو أكثر - في المسألة التربوية التعليمية .

٩- كتاب - أو أكثر - في قضايا الحكم والسياسة والجهاد وعلاقات المسلمين بغيرهم .

١٠- كتاب عن تراثنا العلمي والفكري وتقويمه وكيفية التعامل معه .

١١- كتاب - أو أكثر - في التاريخ الإسلامي وتقويم مسيرته ومكانته .

١٢- كتاب استقصائي تحليلي في أسباب تخلف المسلمين وضعفهم ، قديماً وحديثاً .